للحقيقة والتاريخ

بين آدم وحواء

للدكتور زكي مبارك

كثُر الكلام في هذه الأيام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة وعهد الأرض . وقد تورّط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم فأطلق خياله الروائي في شؤون فَصل فيها التاريخ منذ أجيال طوال ولم يبق موجب لذلك التورّط بعد حُكم التاريخ ، فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء والتزيدُ عليه لا يجوز وإن احتال فزعم أنه يكتب باسم الفن لا باسم التاريخ

وهل يستطيع بفنه الروائي أن يخلق من الصور مثل ما سجل المؤرخ شيث بن عربانوس ، طيّب الله ثراه ؟

ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئاً قبل سنة ١٩٣٣ ، وإنما هداني إليه أستاذنا المرحوم أحمد زكي باشا بعد أن انتهى ما كان بيني وبينه من خصومة وصيال

فإن سألتم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدوّنها في سطور ثم أمضي إلى ترجمة شيث بن عربانوس بإيجاز ، تمهيداً لشرح آرائه في آدم وحواء بإطناب :

كانت وزارة المعارف قررت إقامة حفلة تأبين للشاعر أحمد شوقي ، حفلة يشترك فيها أقطاب الأدب في البلاد العربية ، وكان منهاج الحفلة يوجب أن يتكلم الضيوف في الأوبرا الملكية تكريماً لمقدمهم الحميد . أما أدباء مصر فيتكلمون في الحفلات التي تقام بكلية التجارة ، وهي حفلات دامت ثلاثة أيام ، وكانت أشبه بسوق عكاظ ، فقد اتسع فناء الكلية للمئات أو الألوف ممن يسرهم أن يستمعوا كلمات الخطباء وقصائد الشعراء

ومضيت لأشهد الحفلة الأولى بكلية التجارة فهالني أن أسمع خطيباً يتنحنح بعنف ، مع أني لم أكن اجترت عتبة الكلية ، فسألت نفسي كيف يصل صوت التنحنح برغم تلك الأبعاد الطوال وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها ميكروفون ، وأقيم لذلك الميكروفون مسامع في جميع الأركان . فمن السهل أن يَسمع صوت الخطيب جميع إلمارة بشارع « قصر العيني » أو شارع « أفراح الأنجال » ، ولا تسأل عما تصنع التحنحة وقد ضجّت بها مسامع ذلك المذياع ؟

ونظرت فإذا الخطيب أحمد زكي باشا . فكيف غاب عنه وهو عالم علاّمة أن الميكروفون سينقل إلى الجيران وجيران الجيران تحنحته القوراء ؟

أما كان في مقدوره أن يدير وجهه أو يدير الميكروفون قبل أن يقترف ذلك الصوت ؟

أضحكني أن يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه فأخذت أترصد له غلطة أدبية أو تاريخية لأهجم عليه في جريدة البلاغ ، ثم اتفق لحسن الحظ أن قال كلاماً غير صحيح ، وهو يتكلم عن مدح الرسول في « نهج البردة » ، وكنت يومئذ مشغولاً بتأليف كتاب « المدائح النبوية » فوجدت عندي من المحصول الأدبي والتاريخي ما يكفي لإفحامه بلا عناء

وما كادت تظهر كلمتي فيه حتى اندفع الرجل لمصاولتي على صفحات البلاغ بأسلوب ساحق ماحق ، وكان رحمه الله آيةً في الكرّ والفرّ ، وكان لا يهجم على باحث إلا تركه كالرقات ، بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوقّاد

كنت يومئذ بين نارين : نار الخوف من التطاول على شيخ جليل خدم اللغة والأدب والتاريخ ، ونار الخوف من الهزيمة أمام القراء ، وأنا محرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ

وفي تلك المعمعة قدم الباشا للبحث عني في الجريدة ومعه الأستاذ عبد الرحمن بك عزام فحدّق في وجهي وقال : أما تستحي من شتمي وأنا أستاذك ؟

فتماسكت قليلاً ثم قلت : وأنت يا باشا . أما تكفّ شرك عن تلميذك ؟

فابتسم عبد الرحمن بك وقال : لا موجب للجدل بعد هذا العتاب اللطيف !

ولكن زكي باشا لم يسكت عني ، ومضى يلاحقني بإيذاء لم يفضّه غير الحادث الآتي :

كانت حوادث فلسطين وصلت إلى آلام وجراح ، فأرسل

زكى باشا إلى الحاج أمين الحسينى برقية مطولة كلفته أحد عشر جنيهاً ، وكان ينتظر أن يصل إليه جواب رقيق ، ولكنه لم يتلق أى ردّ من الحاج أمين ، فكتب إليه يسأل عن سر ذلك السكوت فكان الجواب أن البرقية وصلت ، ولكنها لم تكن بإمضاء « زكى باشا » وإنما كانت بإمضاء « زكى مبارك » !

وامتشق زكى باشا قلمه وأنشأ مقالاً أخذ أربعة أنهر من جريدة الأهرام ، وكان فى مقاله أن عامل التلغراف حرّف الإمضاء ، فإن كان من مصر فإلى « البيان » وإن كان من فلسطين فإلى « البحر الميت » وأعلن زكى باشا أن التحريف مقصود ، وكانت حجته أن « زكى باشا » قد تُحرّف إلى « زكى الابراشى » بسبب « الشين » ولكنها لا تُحرّف إلى « زكى مبارك »

وامتشقت قلمى فكتبت رداً وجيزاً نشرته الأهرام فى أول نهر من الصحيفة الأولى ، وكان الرد يتلخص فى أن « زكى باشا » هو نفسه الذى أمضى باسم « زكى مبارك » ، وحجتى أن الباشا مشغول بمناوشتى على صفحات البلاغ ، فأنا ملء قلبه ، ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمى ، ورأى زكى باشا أن التعليل مقبول ، فذهب إلى إدارة التليغراف وطلب أصل البرقية ، ثم ابتسم حين شاهد أنها باسم زكى مبارك ، بخط الباشا الظريف ؟

لم يكن بدّ من أن يدرك زكى باشا أن الأقدار أرادت أن تطوقه بالخطأ ليكفّ عنى أذاه . فاتصل بى تليفونياً ليدعونى إلى العشاء وإمضاء عقد الصلح ، فأجبت بالقبول

دخلت على الباشا العالم العلامة « العالم حقاً والعلامة صدقاً ، فزكى باشا طراز وحيد من العلماء ، وليس من السهل أن يجود بمثله الزمان » . دخلت على الباشا فوجدته فى ثياب البيت وهو يلعب الشطرنج مع الدكتور « أحمد عيسى » ؛ فأشار بعد السلام إلى أن أنتظر لحظات ، فسيغلبُ الدكتور أحمد عيسى ثم يلتفت إلى واجب الترحيب !

ومرّت ساعة وساعة والخلائق تتقاطر بميعاد وبدون ميعاد ؛ فعرفت أن العشاء فى بيت زكى باشا ليس لمن دُعِىَ إليه ، وإنما هو لمن تداعَـوْا إليه !

ثم مُدّ السماط على الطريقة العربية ، وأقبل خادمٌ فقدّم إلى الباشا ورقة مطوية فمحا الباشا كلة وأبقى على كلة . فماذا محا ؟ وماذا أثبت ؟

كان التفاضل بين نوعين من الشراب : أحدهما عصير الشعير وثانيهما منقوع الخرّوب . وقد رأى الباشا أن يكرم ضيفه المتخرج فى السوربون فاختار الشراب الأول وهو شراب أصهب يُستطاب فى ليالى الصيف !

لم أكن دخلت « دار العروبة » من قبل ، ولا كنت عرفت كيف ظفرتْ بذلك اللقب الظريف ؛ وكان مبلغ علمى أن صاحبها يتحدث عن العروبة فى كل يوم ؛ فهى دار العروبة لأنه شيخ العروبة ، والألقاب لا تَعسُر على أحد فى هذا الزمان !

وفى تلك الليلة عرفت ما لم أكن أعرف : عرفت أن زكى باشا يسير سيرة العرب القدماء ، فبيتُه مفتوح للجميع ، ومن حق أى إنسان أن يحضر وقت الغداء أو وقت العشاء بدون احتياج إلى استئذان ، على شرط أن يترك للباشا حرية التصرف فى وقته بعد رفع السماط

والحق أن زكى باشا كان ينوب عن مصر فى مهمة من أصعب المهمات ؛ فقد كانت داره مثابة الوافدين من الشرق ، ولم يكن يحق لأىّ ضيف أن يتهم مصر بالبخل وزكى باشا موجود .

وإنما نصصت على هذا الجانب من شمائل زكى باشا رعايةً للتاريخ ، وأملاً فى أن يقتدى به من يسرهم إكرام من يفد على مصر من أهل الشرق . فمن العيب أن ينهب السخاء العربى إلى غير ميعاد وكانت له مواسم فى هذه البلاد !

وقد سمعت عن كرم زكى باشا فى سره وعلانيته أخباراً لا يصدقها العقل ، جزاه الله عما صنع خير الجزاء ، وحفظ اسمه بين الكرماء ، كما حفظ اسمه بين العلماء

ثم أرجع إلى الغرض من هذا الحديث فأقول :

جلست أمام زكى باشا بعد العشاء تمهيداً للصلح المنشود ؛ فقد كنت فى سريرة نفسى أومن بأن التطاول على مثل ذلك الرجل قد يعرّضنى لغضب الله . وأنا أخاف الله أشد الخوف لأنه حمانى من أن أخاف أحداً سواه ؛ فمن المخاطرة أن أشجُع فى موطن لا تكون فيه الشجاعة من رضاه . وكذلك عزمت على أن أتلطف ما استطعت لأظفر من زكى باشا بالصفح الجميل

— هذه أول مرة تأنس فيها « دار العروبة » بزيارة الدكتور مبارك

— ليست هذه أول مرة أتشرف فيها بزيارة « دار العروبة » أعزها الله !

— ما هذا الكلام ؟ وما رأيتك هنا قبل اليوم !

— سمعت أخبار دارك ، أيها الشيخ الجليل ، وكنت أشعر أني شريكٌ بالقلب لكل من يفد عليها من أهل الشرق ، وما غاب عني كرمٌ تؤدّى به فرض الكفاية عن بلادنا الغالية

فابتسم زكي باشا وقال :

— ما كان ضرّك لو قلت هذه الكلمة وأنت تلاحيني على صفحات البلاغ ليخف عتبي عليك !

— سأقولها يا مولاي لجميع الناس ، وسأملأ بها مسامع الأرض والسماء

— إسمح ، يا مبارك ، إسمح ، إن أدبك في هذه اللحظة يستأهل جائزة سنية ، جائزة تذكرني بها طول حياتك ، وقد تكشف لك عن أشياء من غوامض التاريخ القديم ، وهو التاريخ الذي أرادت شراستُك أن تجعله ظنوناً في ظنون !

— أعظم جائزة أتلقاها من أستاذي هي رضاه عني

— الجائزة المُظمى لمن كان في مثل أدبك أن تُهدَى إليه النسخة الوحيدة من كتاب شيث بن عربانوس . أما رضاي عنك فهو مضمون مضمون

ومضى الباشا لإحضار الهدية ، ثم عاد ومعه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي ، وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدُور العاديات[1]

أقبلتُ على الكتاب بلهفة وشوق ، ثم لاحظتُ أن منزلتي عظُمت في قلب زكي باشا حين رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء ، وعندئذٍ تذكرت جناياتي على نفسي وعلى مصيري في هذا الوجود

وما تلك الجنايات ؟

سأتكلم بصراحة لأخدم قرائي ، فقد يكون فيهم من انحرف عن طريق النفع كما انحرفت

يعرف الناس أني مثال الحرص على طلب العلم والأدب ، وتعرف مكتبتي أني صديق يزورها في كل يوم ، ويعرف قلمي أني أخلو إليه في كل ليلة ساعة أو ساعتين

فكيف تخلفتُ مع ذلك الحرص ؟ وكيف جاز أن أكون واحداً من الناس ، وكفاحي يوجب أن أكون أوحد الناس ، لو نجوت من ذلك الانحراف ؟

يرجع التخلف الذي أعانيه إلى أني أقبلت على علوم وفنون يُقبل عليها أكثر الناس ، ويَصعُب فيها الادّعاء ، لأن عليها رقباء يعدّون بالألوف

أردت التفوق في علوم اللغة العربية فوصلت إلى أشياء ، ولكن علوم اللغة العربية مبذولة لجميع الطالبين ، وليس من العسير أن يكون لي نظراء في كثير من البلاد

وأردت التفوق في الدراسات الجامعية فنِلت إجازة الليسانس مرة وإجازة الدكتوراه مرات ، ولكن الدراسات الجامعية لم تَعُد من الأسرار ، فمن السهل أن يكون لي فيها منافسون

وأردت أن أكون من كتاب اللغة العربية وشعرائها وخطبائها فكان ما أردت ، ولكن هذا الميدان محفوف بالأخطار في كل صباح وفي كل مساء بسبب نشاط الزملاء

وأردت أن أتفوق في اللغة الفرنسية فبلغت ما أريد ، ولكن اللغة الفرنسية يجيدها ألوف أوملايين ، فأين مجال التفرد والامتياز ؟

آه ، ثم آه ! !

كان الرأي أن أقصر جهودي على اللغات الميتة ، وهي لغات يدّعيها من شاء كيف شاء ، بلا رقيب ولا حسيب . ألم تسمعوا أن في الناس من يزعم أنه يجيد عشر لغات من لغات القدماء : كاللاتينية واليونانية والديموتيقية والسريانية والبابلية والحبشية والسنسكريتية والفهلوية ، إلى آخر ما تعرف الأنظمة الجامعية ؟!

من الذي يحاسب مدرس اللغة اللاتينية إذا أخطأ ؟ ومن الذي يجادل مدرس اللغة الديموتيقية إذا انحرف ؟ ومن الذي يراجع مدرس اللغة البابلية إذا حاد ؟ ومن الذي يتقدم فيردع من يخلط بين النصوص الحبشية والحميرية ؟

عرفت فيمن عرفت رجلاً يعجز عن كتابة صفحة سليمة باللغة العربية ، مع أنه من أبوين عربيين ، ولم يمنعه ذلك الضعف

---

(١) صفحات هذا الكتاب غير مرقمة وما قدرتها بخمسمائة إلا على وجه التقريب ، ولو كان لعدد أهمية لعددته صفحة صفحة قبل أن أكتب هذا الحديث

من أن يكون أستاذ اللغة البابلية فى إحدى الجامعات الأمريكية !

وعرفتُ فيمن عرفت شخصاً يتصدَّر لتدريس إحدى اللغات الميتة فى كلية تحيط بها حديقة بالقرب من نهر له مكانة فى التاريخ ، وهو شخص لا يجيد لغة قومه الأحياء ، فكيف يسهل عليه فهم لغة مات أهلوها منذ أزمان ؟

لو أنى التفت إلى هذه الناحية لأرحت نفسى من منافسات لا تطاق .

كان من السهل أن أتعلم الأبجدية من إحدى اللغات الميتة ، فالأبجدية تكفى للتفوق فى اللغات البوائد ! !

وهل فُضح فلان لأنه أخطأ عشر مرات فى خمسة سطور كتبها باللغة العربية إلى عميد إحدى الكليات بأحد البلاد ؟

هو متخصص فى اللغة الأكادية ، أو اللغة القنقلية ، فكيف يطالب بإجادة اللغة العربية ؟

وهل يستطيع أحدٌ أن يطالب الدولة بمحاسبة هؤلاء وهو يعرف أن الدولة تريد أن تسامى الأمم الأوربية والأمريكية فى الحذلقة الجامعية ؟

الدولة على حق والشاهد الآتى يؤكد ذلك الحق :

قال فلان : القنقلون كلمةٌ آرامية ، وهى الكنكلون فى السريانية ، والقنكلون فى البابلية ، والكنقلون فى الآشورية ، ومعناها القنقلون ، والوصف منها متقنقل ومتكنكل ، ومتقنكل ، ومتكنقل ، على خلاف فى صياغة الأوصاف

ومن أجل هذا العلم النزر تنفق الدولة ما تنفق لإحياء لغات ماتت فى بلادها الأصيلة بسبب انعدام الحيوية ، وعلينا نحن أن ننفض عنها أتربة القبور ، لأننا موكلون ببعث الأموات

الأوربيون يدرسون اللغة اللاتينية واللغة اليونانية ليعرفوا أصول لغاتهم ولينقلوا ما فى هاتين اللغتين من نفائس الآداب .

وقد عرفَت اللغات الحية فى أوربا خير ما أُثِر عن اللاتينية واليونانية ، ونحن لن ننقل تلك الآثار إلى لغتنا إلا عن الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الموجب لقتل الوقت فى درس لغات ميتة لن ننقل عنها أى حرف ؟

يضاف إلى ذلك أن الشواهد تنطق بأن الشبان الذين تهرناهم على درس اللغات الميتة قد ضاعوا على مصر وعلى أنفسهم من الوجهة العقلية ، وإن كانوا أساتذة محترمين ، وكيف لا نحترم من يعرف من أسرار القنقلون ما لا نعرف ؟

أتريدون الحق ؟

الحق أن مصر تبتدئ من حيث انتهى الناس

والحق أن مصر تحاول أن تخلق من الدراسات الجامعية لوحة إعلانات عن قربها من العقلية الأوربية ، وكأنها لم تسمع أن أوربا بدأت تنفض يديها من التعصب للأموات

لو أن ما أُنفق على درس اللغات الميتة كان أُنفِق على ترجمة ما أُثِر من تلك اللغات لظفرنا بنفائس تزيد فى ثروتنا الذوقية والأدبية ، ولكننا أطعنا الوهم فأضعنا أموال الدولة وأعمار الطلبة فى شؤون قليلة النفع والغناء ، مالى ولهذا ؟

أنا أضعت الفرص السوانح فى درس أبجديات تلك اللغات ، وهى فرص لن تعود ، فما تستطيع الأمة بعد اليوم أن تنفق درهماً فيما لا يفيد ، إن صحّ أن الأمة صَحَتْ من غفوتها فأدركت الفرق بين ما يفيد وما لا يفيد !

إن زكى باشا طرب حين رآنى أقرأ الخط الكوفى بلاعناء ، فكيف يكون حاله لو نظر فرآنى أقرأ الخط السنسكريتى ؟

وهل أجهل الخط السنسكريتى ؟

أنا أعرف منه ما لا يعرف فلان ، فليجادلنى فيه إن استطاع !

إفتحوا أعينكم يا بنى آدم من أهل هذه البلاد ، واعرفوا أن الحذلقة الجامعية لن تنفعكم فى كثير أو قليل ، وتذكروا جيداً أن العلم الصحيح هو علم هذا الزمان ، وستأثم الجامعة المصرية إن شُغلت عنه بأوهام التاريخ

إسمعوا قبل أن لا تسمعوا ، فأنا أخاف عليكم أشياء لا تخطُر لكم فى بال ، وهذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى يصوّبه إلى عقولكم كاتب يبغض المداهنة والرياء .

(للحديث شجون) **زكى مبارك**

حكم فى قضية الجنحة المستأنفة رقم ٩٧٢١ سنة ١٩٤٠ بتاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٠ ضد شمس الدين الحلبيب وعلى سكنه الأزبكية بتغريمه ٥٠٠ مليم لبيعه سكراً بسعر أزيد من التسعيرة

حكم فى القضية ن ١١٤٥ عسكرية طنطا سنة ٩٤١ ضد محمد محمد عوال بغرامة ٣ جنيه والنشر بتاريخ ٢٦ نوفبر سنة ٩٤١ وذلك لبيعه فزه بسعر أكثر من المحدد

حكم فى قضية الجنحة المستأنفة رقم ٢٦٢٩ سنة ٩٤١ بتاريخ ٣/٢٦ سنة ٩٤١ ضد محمد ابراهيم على وعلى سكنه شارع السجيه بتغريمه ٢ جنيه لبيعه فحماً بسعر أزيد من التسعيرة